من النقد النسقي إلى النقد الثقافي

الأستاذ: اليامين بن تومي

جامعة –سطيف–

مقدمة نظرية

إن قراءة النص، ومحاولة فهمه يقودنا حتما إلى معاينة إشكاليات القراءة وما تفرضه على القارئ من صرامة، خاصة وأن النص لن يعرض نفسه للقارئ من أول وهلة بل سيتمنع ويتدثر بألاعيبه اللغوية والرمزية الفلوتة المتمنعة.

وحده القارئ إذا؛ من يعيد الحياة من رحم السكون والركود، ولا يتم ذلك إلا من خلال فاعلية القراءة التي تنتج عن المتعة والتذوق التي تعينها المنبهات العائمة على النص من كون العلاقة التي تحكم القارئ والنص كما يقول السلوكيون مبنية على أساس المنبهات أو الشرط والاستجابة من خلال الإغراءات العائمة على النص، والتي تستفز الخلفية الثقافية للقارئ. ومدى فاعلية هذه المنبهات في إثارة الرغبة أو تحريك اللذة عنده، لأن العلاقة التي تكون بين النص والقارئ فيما يحدده ياوس:" تستبعد ما يسميه ايزر مع ابرويغ كوفمان وضعية الوجه للوجه face to face situation التي تطبع كل شيء من أشكال التفاعل الاجتماعي" [1]. ومن شروط تواصل القارئ بالنص أن يكون القارئ واعيا بالبنية الثقافية التي يطرحها النص: "وسيعتمد نجاح فعل التواصل هذا على الدرجة التي يؤسس فيها النص نفسه كعامل ارتباط في وعي القارئ"[2].

إذا وتأسيسا على ما تم؛ فالنص بالنسبة للقارئ مثير وفق الوقع الذي يحدثه في نفسية القارئ، وتصبح القراءة هنا فعلا يعمل على تنشيط النص وهنا يقول ايزر: "إن القراءة نشاط يوجهه النص، وهذا بدوره لا بد من أن يعالجه القارئ الذي يتأثر بدوره بما يعالج، وإنه لمن الصعب أن نصف هذا التفاعل"[3]. وهنا يصر ايزر على مفهوم وجهة النظر الجوالة من حيث إن معنى النص لا يكتسبه دفعة واحدة بل يأخذ القارئ في اكتسابه تدريجيا، وهذا ما يؤكد أن ثقافة القارئ تعمل على حل أو فتح المخزون الثقافي للنص: "وغاية وجهة النظر الجوالة للقارئ هي بلوغ التأويل المتسق أي الجشطالت" [4]. وعليه فالنص لا يكتفي بذاته، بل يتعداها، وهنا نجد نوعا: "من التداخل والالتحام بين النص وقارئه ينتج عنه تأثير جمالي، لتصبح بذلك آلية القراءة تتحرك بين قطبين، القطب الفني للنص، والقطب الجمالي، يختص الأول بالنص وصنعته اللغوية، ويختص الثاني بنشاط عملية القراءة وكل ينصهر في الآخر ويحل فيه ليتشكل من ذلك النص"[5].

وانطلاقا مما تبين؛ تحدد أن القارئ ليعاين النص معاينة علمية عليه أن يتسلح بمعاول نقدية محكمة وراسخة، تسمي في غالب الأحيان بالإواليات والإجراءات التي يفتح بها الناقد مغاليق النص. ولقد مر النقد العربي فيما يري سعيد يقطين بثلاث إبدالات أساسية هي:

" 1- الدراسة التاريخية للأدب (المرحلة اللانسونية)

2- دراسة المضامين وأبعادها الايديولوجية (الواقعية)

3- التركيز على الأشكال ونظريات التأويل (البنيوية وما بعدها)" [6]. ولعل أهم إبدال معرفي هو التركيز على البنيوية وما بعدها؛ هذا الخيار الذي تفرق إلى محصولين أساسين هما - البنيوية التي رسخت مقولة فوكو الشهيرة نحن جبل النسق وبالتالي ثبتت مقولات النقد النسقي.

- ما بعد البنيوية التي قامت على أنقاض المد البنيوي من خلال تغليب نزعة اللامركزة من خلال نقد التمركز حول العقل من جهة ونقد التمركز حول الصوت ثانيا.

وأبعاد النسق المعرفية لسانية خالصة من خلال الجهود التي باشرها دوسوسير حيث: "كان يبحث عن تحديده طوال حياته كما يقول أنطوان ميي الذي كان بدوره ينظر إلى اللغة على أنها نسق مركب من أدوات التعبير" [7]. وهنا أدركت البنيوية أهمية النسق في معاينة النصوص، وخلصت إلى أنه جملة القواعد التي تحكم بنية الظواهر أدبية كانت أو نقدية، ولا يمكن بحال أن يخرج نسق ما عن طابع الحواري العام الذي يتخلق فيه وهي البنى الاجتماعية والثقافية المحيطة.

ولعل أهم الجهود التي باشرها النقاد في هذا الإطار هي البحوث التي قدمها بروب الذي بحث عن مظاهر الانسجام والوحدة داخل الحكاية الشعبية: " فقد طبق الإجراء الوصفي الذي قاده إلى استنباط النسق القار الذي نلفيه في هذا النوع من الحكايات بغض النظر عن زمانها ومكانها. هذا النسق القار على صعيد الكم والكيف يتسم بالبساطة الشكلية وبثبات عناصره ومحدودية وظائفه" [8]. وبهذا النمط انتقلت النسقية إلى مجالات بحثية متعدد منها الأنثروبولوجيا مع ليفي شتراوس حيث يرى أن النسق الذي يرادف البنية وهي ذات: " طبيعة لا شعورية رمزية تمكن من ردة الكثرة من المظاهر إلى أنسقة الكشف عن معنى أضفاه الإنسان عليها عبر حياته، ومقارنة هذه الأنسقة أو البنى الفوقية ستكشف عن نظام بقي مجهولا لدينا حتى الآن" [9]. وتزايد الاهتمام بالنسق مما أدى ببارت إلى دراسة نسق الموضة في كتابه système de la mode وهنا بدأ النسق يعرف انفتاحا مهما مع الدراسات السيميائية: "فإذا كانت المقاربات السيميائية البنيوية قد تعلقت بوهم النسق المغلق والتحليل المحايث فإن المقاربات السيميائية استطاعت أن تتجاوز هذه الحدود الضيقة لترتقي بها إلى منزلة ابتكار

منها خطاب واصفmétadiscours تمثلت وظيفته في البحث عن الأنساق السيميائية الدالة بمستوياتها اللسانية وغير اللسانية".[10]

لقد حاولت القراءة النسقية أن تستفيد بقدر كبير من مقولات القراءة السياقية مع ملاحظة التمايز الواضح بين أن القراءة السياقية تركز على مبدأ العلة الذي يربط النص بمعطياته الخارجية، بينما القراءة النسقية تضع هذه العلاقات الخارجية بين قوسين لأولية الداخل على هامشية الخارج.

النقد النسقي والنقد الثقافي | تجربة عبد الله الغذامي

القصيدة العربية مكوّن ثقافي ساهم في تشكيل النظام المعرفي العربي، بل إنها ساهمت في تكوين العقل العربي -فيما يرى الجابري - وهنا يقول محمد عبد الله الغذامي: "حينما قال أرسطو عن الشعر إنه أكثر فلسفة من التاريخ لم يكن يعرف الشعر العربي، ولم يكن يعرف أننا أمة تختزن كل وجودها النفسي والذهني في داخل القصيدة والعربي الذي كان يعيش وجوديا في بيت الشَعر – بفتح الشين- جسديا كان يعيش فكريا ووجوديا في بيت الشِعر -بكسر الشين- ولذا كانوا يقولون بيت القصيد، قاصدين لب القول وخلاصة الخلاصة، وظلوا على مقولة: "المعنى في بطن الشاعر"، إشارة إلى أن الشعر هو مصدر المعاني وهو مخزن المعرفة، ولقد كان -و ما يزال – هو ديوان العرب الذي فيه سجلهم وخلاصة رؤيتهم"[11]

لقد تعين أن القصيدة العربية قد أصبحت لنا بمثابة الجين الذي يحفظ الخصوصية ويصون الهوية من الضياع. فهل استطاعت المناهج النقدية الغربية أن تستوعب النظام المعرفي للقصيدة، بل هل استطاعت أن تقرأ القصيدة العربية وفق مقولاتها وأنساقها، أم أنها بترت القصيدة عن سياقها الثقافي الذي أنتجها ؟

و عليه اعتبرنا أن القصيدة مكون ثقافي يقع عليه ما يقع على المنظومة المعرفية قاطبة، ونظرا لحالة الشرخ الرهيبة التي عاناها النص طويلا كان لزاما أن نؤسس نقديا لآليات مفهومية جديدة بديلة تستوعب النص العربي قصيدة ونثرا. ..فالقصيدة بتعبير هيدجر تمثل شكلا من أشكال الفهم الوجودي لأنها بيت

الكينونة فهي تتجلى من خلال اللغة، من خلال بيت القصيد، أي من التمظهرات المختلفة التي تحملها القصيدة.

فهل استوعب الإجراء الغربي القصيدة، هل فهم مقاصدها أي استطاع أن يكشف محجوباتها ولا معقولاتها أم أنه أوقعها في الشراك نفسه الذي وقعت فيه الثقافة العربية ؟

:" من هنا لم يعد هناك مشروع ثقافي (حتى للتبعية) وإنما أدوات إجرائية تسعى لنقل التقنيات التي تتصور أنها قادرة على حل المشكلات "[12] لأن مصطلح مشروع لم يخرج عن دائرة الاهتمام الغربي، فقد أصبح تابعا لتكوين أكبر منه وهو المركزية الغربية، وذلك للافتراض المبدئي الذي شكك في قدرة القصيدة أن تقوّم نفسها. فمجرد نفي الإمكانية عنها أدخل الذات في صراع مع موضوعها لذلك انتفى الموجود كله لصالح الآخر بحجة الحداثة :"ليست الحداثة الشعرية من هذا المنظور مجرد بنى وتشكيلات كلامية. فهي تفترض بدئيا، معرفة الشاعر العربي نفسه بوصفه ذاتا، وبوصف هذه الذات لغة، وبوصف هذه اللغة أداة كشف وإفصاح وايصال. هذه الإحاطة المعرفية بالذات والتي هي الشرط الأول والبديهي لكتابة الحداثة تعبيرا عن الذات، إنما هي في الوقت نفسه الشرط البديهي للعلاقة الخلاقة مع الآخر "[13]

إن مقولة أدونيس الآنفة تخلق حركية على مستوى الموضوع الذي التبس غربيا، من كون القصيدة تموضعت غربيا في لحظة المقولة بالحداثة من البون المعرفي الشاسع بين المقولة الغربية للحداثة ومضامينها في المجتمع العربي وهنا نجد أن الشاعر العربي قد انسلخ عربيا عن أنساقه لصالح الغلبة التي انسحبت من النموذج الغربي بدعوى أن النتاج المعرفي قيمة جهد بشري، إن هذا التفكير على مستوى القيمة يخلق فوضى على مستوى الضبابية التي تكتنف الجهاز المفاهيمي، لا مكان اليوم للاتفاق لأننا مختلفون لذلك يعتقد أدونيس أن: " أن الحداثة لا تنشأ مصالحة، و إنما تنشأ هجوما. تنشأ، إذن في

خرق ثقافي، جذري وشامل لما هو سائد. وراء الحداثة رؤية شاملة لمشروع ثقافي حضاري شامل." [14]

إن القصيدة التي كان يزعم أنها نظام ثقافي حيث تنصهر فيه الملامح، أصبحت كغيرها من حلقات الثقافي تعاني من امتداد المقص المنهجي الذي يعاني إلى النخاع من الاضطراب والارتجال وهنا يقول وهب أحمد رومية:" لقد غلب على هذا النقد – وهذا أول الملامح وأبرزها – الاضطراب والارتجال، فالمعايير النقدية تسوي على عجل والنقاد ينقدون دون ترتيب أو أناة، فتضطرب بين أيدي جلهم المناهج وتتداخل وتتحول الثقافة النقدية إلى أشتات منهجية تكاد تستعص على محاولة ردها إلى منهج بعينه أو مناهج متقاربة وتكاد الصلة تنقطع بين مواقف أصحاب هذه المناهج في النقد ومواقفهم في الحياة، فكأن النقد لا يصدر عن رؤية شمولية للحياة وعن موقف محدد منها يعرف وظيفة النقد في المجتمع على نحو ما يعرف وظائف سواه من وجوه النشاط البشري الأخرى." [15]

لذلك نحن بحاجة إلى طريق نقدي مؤصل محكم واعي بالتجربة النقدية في أصولها، مشروع واكب جميع تفصيلاتها وتمفصلاتها.

وهذا ما نتوخى عرضه في هذه المقاربة من قراءة في مشروع محمد عبد الله الغذامي. ينسلك مشروع عبد الله الغذامي في إطار عام يتدافع فيه الخطاب النقدي العربي نحو إيجاد ابدالات حقيقية في ممارسة الفعل النقدي فهو تفكير دؤوب في إيجاد الإواليات الأساسية التي ينفتح بها النص.

والملاحظ على مشروع عبد الله الغذامي أنه تطور بنيويا في مسارين أساسين:

- مسار الناقد البنيوي.

-مسار الناقد الثقافي.

ففي المسار الأول توج كتابه: "الخطيئة والتكفير" مرحلة النسق وفق مقولة فوكو الشهيرة " نحو جيل النسق"على الرغم أنه لم يحصر النسق في منهج معين بل استخلصه في جملة من الطروحات المنهجية: "فالبنيوية تملك

تصورا معينا للنسق لا يرقي إلى درجة الإطلاق. فهناك مناهج نسقية أخرى تعارض التصور البنيوي للنسق ومن هنا نرى بأن القراءة النسقية إطار عام يتجاوز المنهج المحدود فتنضوي تحته البنيوية كما تنضوي تحته مناهج أخرى[16]

أما المسار الثاني، فهو مشروعه عن النقد الثقافي والذي طرحه للناقد العربي عن طبعته الأولى سنة 2000. وفيه حاول عبد الله الغذامي أن يعاين القصيدة العربية وفق النقلة المفاهيمية التي أحدثها على تمثل الجهاز النظري الجديد والذي أحدث قلبا في الوظيفة الأدبية، فمن الناقد الأدبي إلى الناقد الثقافي يستنهض عبد الله الغذامي مشروعه النقدي.

يحاول الباحث في هذه الدراسة أن ينتزع عن الباحث مفاهيمه ليكشف الأنساق الناسخة والمحولة..

إن أول مهمة انطلق منها عبد الله الغذامي هي تهيئته لرصيد نظري صلب ومتين يستحيل معه تجاوز المحكمات الأساسية التي هي في الأساس عدة النظر المنهجي لذلك أجد أن مهمته التنظيرية تلك افترشت آليتين أساسيتين هما:

- آلية التبعيد.
- آلية التقريب.

أما التبعيد فكان بدءا من معاينة المباحث التي فرضتها النقلة النوعية التي مست السؤال النقدي فهو يقول: "إذن نحن بحاجة إلى نقلة نقدية نوعية تمس السؤال النقدي ذاته ولكن ذلك لن يتحقق ما لم تتحول الأداة النقدية ذاتها أيضا وهو تحول ضروري مذ كانت الأداة ملتبسة بموضوعها الأدبي وموصوفة به فالنقد موصوف بأنه أدبي مثلما أن النظرية تفيد بصفة الأدبية والأدبية هي المعني المؤسساتي لهذا المصطلح" مع العلم أن صفة الأدبية التي قررتها سلطة المؤسسة نتيجة أن المؤسسة الأكاديمية هي التي للقت هذا المفهوم لتسيطر به على أفهام الناس في توجيه الخطاب، لذلك فأساس العمل الذي قام به عبد الله الغذامي هو نقد للوسائل التي اعتمدتها المؤسسة في ترويجها للخطاب البلاغي

الرسمي. لذلك في تصوره: "لا بد أن نخلص ما هو أدبي من حده المؤسساتي ولا بد أن نفتح المجال للخطابات الأخرى المنسية والمنفية بعيدا عن مملكة الأدب، كأنواع السرد وأنظمة التعبير الأخرى غير التقليدية وغير المؤسساتية"[17]

و هذه المراجعة في تصوره تتم عبر تجهيز الأرضية التحتية بسياج مفاهيمي محكم يتحكم في إطار المنظور الشعري الذي ينبني على إفلات المصطلح من المصطلح المؤسساتي أي فصل اللحظة التاريخية التي اتحد فيها المصطلح بالمؤسسة.

و هنا فقط يمكن نقل المعاينة والارتحال بها من طور الأدبي (المؤسساتي) إلى الثقافي بعدد من الموجهات المنهجية والإجرائية:

أ- نقلة في المصطلح النقدي ذاته.

ب- نقلة في المفهوم (النسق).

ج-نقلة في الوظيفة.

د-نقلة في التطبيق.

فما هو النسق الثقافي في تصور عبد الله الغذامي ؟

إن مفهوم النسق في مشروع عبد الله الغذامي يعد بمثابة الوحدة النووية التي تدور حولها جميع أفلاك الدراسة، فهو يتجاوز به المفهوم المرجعي الذي يحيل على البنية والنظام ولكنه لا يقصد به الدلالة الحافة وإنما تميزه كمصطلح لا يتم إلا من خلال الوظيفة:" يحدد النسق عبر وظيفته وليس عبر وجوده المجرد والوظيفة النسقية لا تحدث إلا في وضع محدد ومقيد وهذا حينما يتعارض نسقان أو نظامان من أنظمة الخطاب أحدهما ظاهر والآخر مضمر، و يكون المضمون ناقضا وناسخا للظاهر "[18]

وهكذا فإن للخطاب في تصور عبد الله الغذامي واجهتين هما: واجهة ظاهرة وواجهة مضمرة ليكون بين الظاهر والمضمر جدل صارخ حيث يشتغل اللوقي من خلال اللغة للتمويه وليتخذ من المقولات الجمالية حيلا يخادع بها القارئ هذه المقولات مثل: المجاز الكلي. .التورية الثقافية. .حيث يبطن المعنى

اللوقي عكس ما يظهر، فهي حال من النفاق العالم، وهنا نجد أن الغذامي وببراعة تامة أخرج الخطاب (القصيدة) من كونها نصا إلى كونها وسيلة، معنى أنتجته المؤسسة ليقتل الرمزي في القصيدة.

بمعنى أن الذي يقوم به ووفقا لخياراته ومنطلقاته ينصب كله على مسائلة المؤسسة التي صنعت أو كونت جمالية جماهيرية تعتمد الإيجاب بمعنى أنها خلقت ثقافة عامة من خلال مظاهر الهيمنة على المؤسسة الذوقية.

*إن عمل الغذامي هو حفري بالأساس حيث يعمل جاهدا على تعرية المؤسسة البلاغية الشعرية من قدسيتها لينتقد المزالق الابستمية التي وقعت فيها القصيدة العربية، إنه يحفر في أنظمة المؤسسة التي شكلت نموذجا جماليا قارا هيمن على العقل العربي ليكون أحد المآزق الأساسية التي تضخ العجز والوهن في هذا العربي: "ففي تطبيقه على أدونيس وإحسان عباس: "لم يدركا أن الشعر لما يزل مرتهنا لعيوب نسقية لا تجعله مهيأ لأن يقود خطاب التحديث وقد يكون هو العائق التحديثي"[19]

يرى الغذامي أن الأنساق الثقافية أنساق تاريخية أزلية راسخة، فالنسق من خلال هذا التوجه ذو طبيعتين:

-طبيعة ثابتة.

-طبيعة سائلة.

أما الطبيعة الثابتة فهي تتحرك زمنيا مطمورة على المستوى العميق للنموذج الذي يستنسخ كل مرة ليعيد القديم في ثوبه، فهي حركة يتدافع فيها الطاغية إلى الأمام ليخلق مزاجا ثقافيا ناتجا عن حالة الاستهلاك المتواتر كابرا عن كابر، فهي في مطارحته قارة ذات طبيعة ترنداستالية متراتبة لا تفقد حماسها القديم لتعود بنفس الحدة كلما توافرت شروطها الموضوعة وهي نسق مضمر دائما. أما الطبيعة السائلة فهي جملة الأنساق التي تهيكلها الوضعيات والمقامات وهي الإطار الخارجي للغة بالأساس على الحد من الطبيعة الثابتة للنسق، تستنطقها الطبيعة السائلة إلا أن فاعلية الثانية أخطر إذ إنها مدار الخصوصية

التي تميز الشعر العربي كله تلك الطبيعة التي تخلق كل مرة فحلا يضيء سماء القصيدة العربية.

إن الفحولة في تصور الغذامي كونتها نقلة رهيبة في مسار القصيدة العربية وهو الارتحال الذي حصل بفعل الانتقال من نموذج القبيلة الذي كان يدين فيها الشاعر للجماعة "نحن" لصالح المدينة التي تأصلت فيها الفردانية "أنا" مما يفيد إحالة القيمة الشعرية إلى قيم جديدة أساسها التكسب من كون أن الشاعر عند القبيلة –العصر الجاهلي– كان الناطق الذي يكفيه لسانه. هذه الإستراتجية التي عرفت بعض الترضيات وهي خضوع لنظام المانح نتيجة لفاعلية النظام البلاغي الذي دفعته موجة التفاق نتيجة المؤثرات الثقافية التي لعبتها المدينة.

وبهذا يسعى مشروع عبد الله الغذامي إلى زعزعة النظام المفاهيمي والجهاز المقولاتي الذي قبنت عليه تراتبية الفحل الشعري عند العرب، وهي خصيصة بقيت تتحكم في البنية التحتية للمقول الشعري.

مراجع الدراسة:

ا [1] - فرانك شويرويجن، نظريات التلقي، ترجمة عبد الرحمان بوعلي، دار الجسور، المغرب، الطبعة الأولى، 1995. ص 75

2- حافظ اسماعيلي علوي، مدخل إلى نظرية القراءة، مجلة علامات في النقد، المجلد العاشر. الجزء 34. 1999. ص 94.

3 -ايزر، فعل القراءة، نظرية في الاستجابة الجمالية، ترجمة عبد الوهاب علوب، المجلس الأعلى للثقافة، مصر 2000. ص 169.

4- المرجع نفسه. ص 5.

5- حافظ اسماعيلي علوي، المرجع السابق. ص 94.

6- سعيد يقطين، فيصل دراج، آفاق نقد عربي معاصر، دار الفكر المعاصر، بيروت، 2003.ص 21.

7- أحمد يوسف القراءة النسقية، سلطة البنية ووهم المحايثة، الجزء الأول . منشورات الاختلاف. الطبعة الأولى 2003. ص 119.

8 - المرجع نفسه. 125.

9 - زكريا ابراهيم، مشكلة البنية. دار مصر للطباعة. دت. ص 234.

10 -أحمد يوسف، القراءة النسقية. ج1. ص 115.

11- حسن البنا عز الدين، الشعرية والثقافة، مفهوم الوعي الكتابي وملامحه في الشعر العربي القديم، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، لبنان. الطبعة 1 2000. ص 9

12- عبد العزيز حمودة، المرايا المقعرة، نحو نظرية نقدية عربية، مجلة عالم المعرفة 272. ص 21.

13- أدونيس، النص القرآني وآفاق الكتابة، دار الآداب. ص 102

14- المرجع نفسه. ص 106.

15- أحمد وهب رومية، شعرنا القديم والنقد الجديد، عالم المعرفة 208. ص : 17

16-أحمد يوسف، القراءة النسقية ومقولاتها النقدية، دار الغرب، وهران، الجزائر. ص 20.

17-عبد الله الغذامي، النقد الثقافي، المركز الثقافي العربي. الطبعة 1،بيـــروت، المغرب، ص80.

18- المرجع نفسه ص 11.

19 – المرجع نفسه. ص 77.